ترجمة وتحليل :

الخلود

لشاعر الحب والجمال لامرتين

ترجمة الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٢ —

وما ينفك الفضول مستأثراً بلب الشاعر ، فهو يريد أن يعرف كل شيء عن هذا الضيف الكريم الذي فتح عليه سجنه وحطم له قيده ؛ فما الذي حمله على الهبوط من سمائه إلى الأرض ، ومن دار الخلود إلى دار الفناء ؟ وما هذه القدرة الخارقة التي أمسكته عن الطيران ، ووقفته عن الجولان ، ثم حبسته في هذا الكوكب الأرضي بين أجساد مخلوقة من سلالة من طين ؟ وأنى يتسنى له وهو سجين أن يتصل بالبدن الذي تحللت عناصره ، فأمسى رميم العظام ؟ وما هذه العرى المدهشة للعقول ، والصلات الخفية عن الأبصار التي تربط بينهما هذا الربط المحكم الوثيق ؟

« أي قدرة ألقتك على هذه الأرض الفانية ؟
أي يد غيبتك في سجن من الطين ؟
وبأي عرى مدهشة ، وروابط خافية ،
يمسك بك الجسم كما تمسك به وأنت سجين ؟

ولم يكتف لامرتين بهذه الأسئلة ؛ فهو يرتقب بشوق لموج يوم يُفصل بين الروح والبدن ، يوم لا تنفع العرى والروابط مهما خفيت على الأبصار ؛ وينتظر مفارقة الروح لهذه الأرض وصعوده إلى السماء حيث يجد قصراً مشيداً بدلا من القبر الذي كان يشترك فيه مع البدن .

« متى يوم الفصل بين الروح والبدن ؟
متى تغادر الأرض إلى قصرك المشيد ؟
هل نسيت كل شيء ؟ ألن يبيتك الزمن
من أعماق القبر إلى مجهول جديد ؟.. »

وإذا انفصل الروح عن البدن وتحرر من قيوده وطار من هذه الأرض إلى السماء ، وانتقل من قبره إلى قصره — فكيف تكون حياته المقبلة ؟ أهي مماثلة لحياته الماضية ؟ أفيها متع عاجلة وشهوات زائلة ، ومطامح سرعان ما تُنسى ، ورغائب ما أقل ما تبقى ؟ أم فيها نعيم خالد لا يُصدَّع عنه ولا يُنزف ، ولا ينقطع ولا يفتر ، ولا يُمل ولا يُستكره ، لأنه يتدفق من عين قدسية تنبع من الذات الإلهية ؟

« هل ستحيا غداً حياتك الماضية ؟
أم ستتمتع أخيراً بنعيم السماء
دافقاً من نفس الإله عينك الجارية ،
بعد أن تحررت إلى الأبد من قيود الفناء ؟ »

وهنا يثوب إلى الشاعر وعيه ، ويصحو على نفسه ، فيوقن أنه لم يمت ولم يُقبر ، وأنه لم يُبعث ولم يُنشر ؛ وأن نفسه جالت فأكثرت التجوال ، وتخيلت فأسهبت في الخيال ؛ وأن كل ما تصوره وتمثله لم يعدُ أن يكون آمالاً عذاباً كثيراً ما تراءت أمام عينيه ؛ وإنما شخص له هذه الآمال ذكراء لحبيبته التي انفصلت عنه انفصال الروح عن البدن ، وعرجت إلى ملكوت السماء بعد أن خلفته وراءها جسداً محطماً وأعضاء جامدة ، ومشاعر خامدة ؛ فكيف لا يناجي روحه الذي فارقه ، ولم لا يتمنى أن يلحق به ولو بالموت والفناء !

لا . لن يندم لامرتين على جسده إن كان فناؤه قرباناً لروحه ؛ فإن أمله في لقاء المحبوبة يهوّن عليه كل شيء ، وأن هذا الأمل نفسه هو الذي جعله لا يُراع ولا يضطرب حين رأى شحوب الموت على وجه (جوليا) الجذاب كأنه صفرة ألوان الربيع بعد أن تذوى وتحول : كلاهما أمر جرت به سنة الحياة ، وقضت به حكمة الوجود .

من أجل ذلك عاد يناجي روحه — وهو في الحقيقة لا يناجي غير حبيبته — بهذه الكلمة التي لا تفيض إلا من قلب تقي وسريرة طاهرة .

« بلى ... تلك — يانصف حياتي — آمالي العذاب
فيها استطاعت نفسي أن تجول ،
وترى بلا روع على وجهك الجذاب
ألوان الربيع الزاهيات تحول .. »

ويؤكد هذا المعنى النبيل بأن آماله في لقاء (جوليا) ومناقلتها

الحديث ومشاركتها فى نعيم السماء لم تبعثه على الصبر والاحتمال فقط ، وعلى الرضا بحكم القضاء فحسب ، وإنما ستبعثه على الشجاعة وقت الشدة ؛ فهو سيبتسم ساعة يتأرجح بين الوجود والعدم ، ساعة يحتضر على فراش موته ؛ ثم هو لن يأسف على صباه حين يقصم الدهر عُراه ، وإنما سيبكى من فرط سروره بلقيا حبيبته منية نفسه ، ونصف حياته .

« وبها ستراني أبتسم وأنا أحتضر ،
بعد أن يقصم الدهر عُرى صباى
وأن دموعى من فرط السرور ستقطر
فى لقائنا ... فتبللا بها مبناى ! »

ويستمر لامرتين فى نجواه — وما أروعها من نجوى ! — فيتمثل حبيبته ويجثو بين يديها مقلباً لها صفحات الماضى البهيج بذكرياته الحلوة ؛ وما ينتا يخاطبها على أنها روحه الذى انفصل عنه فيذكر هذا الروح باليوم السعيد الذى ولد فيه الحب بينهما من نظرة عاجلة تلاها حديث لطيف ومجلس عفيف ، ثم جولات جميلة وسكرات نبيلة ، فى محراب الطبيعة حين تأخذ زخرفها وتزين تارة على رءوس صخورها الناتئة كأنها رقيب نشوان يرهف أذنيه ليسمع أحاديث الهوى ؛ وتارة حول بحيراتها المزينة كأنها صديق أسوان يقاسم الحبيبين ما كتبت لهما يد القضاء ؛ وأحياناً على شطآنها الجرد وكثبانها التواءم التى تكتم السر فلا تفشيه وتحفظ العهد فلا تنساه ؛ والحبيبان — فى تلك الأوقات كلها — لا يحسان مرور الزمن ، ولا يكترثان بالظلال التى تهوى من الجبال ، ماحية القرى فى أذيالها السود ، فإنهما فى نشوة ، وإنهما لطائران من هذا العالم المادى المحدود إلى عالم عرضه السموات والأرض تصفو فيه الأنفس ، وتمتزج الأرواح ، وتأتلف القلوب !

« كثيراً ما نستعيد الذكرى فى هذا المقام السعيد
الذى وُلد فيه حبنا الخالد من نظر عجلان ،
تارة على رءوس هذه الصخور الجلاميد ،
وتارة حول البحيرات المزينة على موحش الشطآن ،
حيث كنت أتحمم معك الظلمات الناشية ،
طائرين - بنجوة من العالم - على جناح الأمل المنشود
وكانت الظلال — وهى من الجبال هاوية —
تمحو أمامنا القرى فى طياتها السود ! »

ولكن الله زين السماء الدنيا بمصابيح جعلها كنثور اللآلى ، موشية برقم الليالى . إن لها لأنواراً رخية تنشى الفضاء ، وإن لأنوارها لألحاناً توقعها أنامل تسحية فى الخفاء ، وإن فى ألحانها لسراً عجزت عن فهمه العقول ؛ فربما كان رجعاً لزنزنة الرياح ، أو صدى لزقزقة الأطيار ، أو ترديداً لخرير الأنهار ، أو تسجيلاً لسحر العشاق .

وقد اكتفى الشاعر بوصف ألحان الليل بالخفاء ، وبدنوها بلا ضوضاء ؛ فانطوى تحت وصفه الوجيز ما تشاء أخيلة الشعراء من سبح فى العالم المجهول .

« لكن كواكب الليل بألحانها الخفية
— وهى تدنو بلا صخب ولا ضوضاء —
تنشى الفضاء بأنوارها الرخية ،
ملقية على كل شيء نقابها الوضاء ! »

وما كان أسرع لامرتين إلى اقتناص التشبيهات المحكمة !

فلقد رأى صورة الكوكب الذى يضيء فى الليل محراب الطبيعة أدنى إلى صورة المصباح الذى ينير بضوئه الخاشع جنبات المعابد بعد أن تنمحى آية النهار : وكما أن هذا المصباح يعوض لألاء الشمس عند الراهب المتبتل فيحسب ضوءه الباهت الخاشع نوراً ساطعاً وهاجاً ؛ لأنه يشعره بمعانى الورع والتقى والزهادة ، فإن الكوكب يعوض النهار الأضحيان ، عند العاشق الولهان ، فيخلع على ضوئه الرخى معانى شعرية ، وأسراراً علوية ، إذ يوحى إليه سراً شجياً ، وحديثاً حلواً ندياً ...

« كذلك ... حين تشحب رويداً رويداً أشعة السماء
فى معابدنا المقدسة التى تضيئها آية النهار ،
يملأ المصباح — وهو يرسل خاشع الضياء —
جوانب المحراب بساطع الأنوار . »

ولعل ألحان الكواكب — بلطفها وخفائها — هى التى ذكّرت الشاعر بألحان روحه ، وقد كان هذا الروح يسكر سكرته الوديعة ، وهو يتأمل مناظر الطبيعة ، ويرجع البصر فيها بين السماء والأرض فينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير ، ثم إذا يرنو بسكرته عينى الشاعر المالئين ، ليطلعه على جمال الوجود ، ويسبّح معه للإله المعبود ، ويبرهن له على عقيدة (الخلود) .